رفاعة رافع الطهطاوي

١٨٠١- ١٨٧٣

مصري صميم، ومن أقصى الصعيد، نشأ نشأة عادية، من أبوين فقيرين، قرأ القرآن، وتلقى العلوم الدينية كما يتلقاها عامة طلبة العلم في عصره، ودخل الأزهر كما دخله غيره، وصار من علمائه كما صار الكثيرون ولكنه بذ الأقران، وتفرد بالسبق عليهم، وتسامت شخصيته إلى عليا المراتب، ذلك أنه كان يحمل بين جنبيه نفساً عالية، وروحاً متوثبة، وعزيمة ماضية، وذكاء حاداً، وشغفاً بالعلم، وإخلاصاً للوطن وبينه، تهيأت له أسباب الجد والنبوغ، فاستوفى علوم الأزهر في ذلك العصر، ثم صحب البعثة العلمية الأولى من بعثات محمد علي، وارتحل إلى معاهد العلم في باريس، واستروح نسيم الثقافة الأوروبية، فزادت معارفه، واتسعت مداركه، ونفذت بصيرته، لكنه احتفظ بشخصيته، استمسك بدينه وقوميته، فأخذ من المدينة الغربية أحسنها، ورجع إلى وطنه كامل الثقافة، مهذب الفؤاد ماضي العزيمة، صحيح العقيدة، سليم الوجدان، عاد وقد اعتزم خدمة مصر من طريق العلم والتعليم، فبر بوعده، ووفي بعهده، واضطلع بالنهضة العلمية تأليفاً وترجمة، وتعليماً وتربية، فملأ البلاد بمؤلفاته ومعرباته، وتخرج على يديه جيل من خيرة علماء مصر، وحمل مصباح العلم والعرفان يضئ به أرجاء البلاد، وينير به البصائر والأذهان، وظل يحمله نيفاً وأربعين سنة، وانتهت إليه الزعامة العلمية والأدبية في عصر محمد علي، وامتدت زعامته إلى عهد إسماعيل، ذلك هو رفاعة رافع الطهطاوي [١].

---

(١) عن ترجمته في كتابنا الحركة القومية الجزء الثالث- عصر محمد علي.

ولد في طهطا بمديرية جرجا سنة ١٨٠١ (١٢١٦هـ)، وبدت علية مخايل الذكاء والنباهة منذ صباه، ودخل الأزهر سنة ١٨١٧، ولم يمض عليه به بضع سنوات حتى صار من طبقة العلماء، وتولى التدريس فيه سنتين، وصنف وألف ودرس وهو في الحادية والعشرين من سنة، ثم عين واعظاً وإمام في أحد آليات الجيش المصري، ولما جاء عهد البعثات العملية كان من حسن التوفيق أن اختاره محمد علي ضمن أعضاء البعثة الأولى التي سافرت إلى فرنسا سنة ١٨٢٦، فجمع إلى ثقافته الأزهرية ثقافة أوروبا وعلومها وآدابها، فاقتبس منها الشيء الكثير، وازدهرت روحه الأدبية على ضوء الحضارة الغربية، ولما عاد إلى مصر سنة ١٨٣١ تولى عدة مناصب في التعليم، وأنشأ مدرسة الألسن سنة ١٨٣٦، وكانت أشبه ما تكو بكلية الآداب والحقوق في مصر، وكان رفاعة يتولى نظارتها ويلقي فيها دروسه على الطلبة، فكانت أكبر معهد لنشر الثقافة في مصر، وتنقل في المناصب العلمية، وكان لا يفتأ يؤلف ويخرج من حين لآخر مصنفاته ومعرباته في العلوم والآداب إلى أن أدركته سنة ١٨٧٣ [١].

وهو أول رائد لنهضة العلم والأدب في النصف الأول من القرن التاسع عشر، كان شاعراً رقيقاً بالقياس إلى عصره، أشربت نفسه الوطنية منذ نعومة أظفاره، تلقاها من إيمانه الصادق (وحب الوطن من الإيمان)، ومن فطرته السليمة، وخواص نيته، وقد استثار رحيله عن مصر إلى فرنسا. عاطفته الوطنية العميقة المتأصلة في نفس الحساسة، فجادت قريحته وهو في باريس بقصيدة عبر فيها عن الحنين إلى الوطن وأهله، والإشادة بمفاخره، قال في مطلعها:

ناح الحمام على غصون البانِ فأباح شيمة مغرم ولهان

وانتقل إلى التغني بمصر وذكر محاسنها وقال:

هذا لعمري إن فيها سادة قد زينوا بالحسن والإحسان
يا أيها الخافي عليك فخارها فإليك أن الشاهد الحسنان
ولئن حلفت بأن مصر لجنة وقطوفها للفائزين دوان
والنيل كوثرها الشهي شرابه لأبر كل البر في إيماني

وله قصائد ومنظومات وطنية قالها في مناسبات مختلفة.

فانظر إلى القصيدة الآتية تجدها تعبر عما يجيش في نفسه من أكرم العواطف وأنبلها، وقد قدمها هو بقوله "وقلت أيضاً وطنية"، فالروح الوطنية تتمشى حتى في تقديمه لقصائده، قال:

---

(١) راجع ترجمته تفصيلاً في كتابنا الحركة القومية الجزء الثالث – عصر محمد علي.

يـــا صـــاح حـــب الـــوطن — حليـــــــة كــــــل فطـــــــن

***

محبـــــــــــة الأوطـــــــــان — مـــــن شـــــعب الإيمــــــان
فـــــي أفخــــــر الأديــــــان — آيـــــــة كـــــل مــــــؤمن

***

مســـــــــــــاقط الـــــــــــرؤوس — تلـــــــــــــذ للنفــــــــــــوس
تـــــذهب كــــــل بــــــوس — عنـــــــا وكـــــــل حــــــزن

***

ومصـــــــــر أبهــــــي مولــــــد — لنـــــــا وأزهــــــي محتــــــــد
ومربــــــــــــع ومعهــــــــــــد — للــــــــــروح أو للبــــــــــدن

***

شــــــدت بهـــــا العــــــزائم — نيطــــــــت بهــــــا التمــــــائم
لطبعنـــــــــــــا تلائـــــــــــم — فـــــي الســـــر أو فـــــي العلـــــن

* * *

مصــــــــر لهــــــا أيـــــــاد — عليـــــا علــــــى الـــــــبلاد
وفخرهـــــــــــا بنـــــــــــادي — مـــــا المجـــــد إلا ديـــــــدني

***

الكــــون مــــن مصـــــر اقتــــبس — نــــوراً ومــــا عنـــــه احتــــبس
فخــــــر قــــــديم يــــــؤثر — عــــــن ســــــادة وينشــــــر
زهــــــور مجــــــد تنثــــــر — منهــــا العقــــول تجتنــــي

* * *

دار نعـــــــــــــيم زاهيـــــــــــــة   ومعـــــــــــــــدن الرفاهيـــــــــــــــة
آمـــــــــــــرة وناهيـــــــــــــة   قـــــــدماً لكـــــــل المـــــــدن
قـــــوة مصـــــــر القـــــاهرة   علـــــــى ســـــــواها ظـــــــاهرة
وبالعمـــــــــــــــارة زاهـــــــــرة   خصـــــــــت بـــــــذكر حســـــــن

* * *

أبناؤهـــــــــا رجـــــــــال   لـــــــم يثـــــــنهم محـــــــال
وجنـــــــــدهم صـــــــــنديد   وقلبـــــــــــه حديـــــــــــد
وخصـــــــــــمه طريـــــــــد   بـــــل مـــــدرج فـــــي كفـــــن

وقال من قصيدة أخرى يدعو إلى افتداء الوطن بالنفس والمال:

وعزيـــــز المـــــوطن نخدمـــــه   برضـــــا فـــــي الـــــنفس نحكمـــــه
مـــــال المصـــــري كـــــذا دمـــــه   مبـــــذول فـــــي شـــــرف الـــــوطن
تفيـــــــده العـــــــين بناظرهـــــا   والـــــــنفس بخيـــــر ذخائرهـــــا
تهـــــدي فـــــي نيـــــل نظائرهـــــا   بشـــــراً العليـــــا أعلـــــى ثمـــــن

وقال يصف الجيش المصري ويشيد بمفاخره:

تـــــــنظم جنـــــــدنا نظمـــــــا   عيجبـــــــاً بعجـــــــز الفهمـــــــا
بأســـــــد ترعـــــــب الخصـــــــما   فمـــــــن يقـــــــوى يناضـــــــلنا؟

* * *

رجـــــــال مالهـــــــا عـــــــدد   كمـــــــال نظامهـــــــا العـــــــدد
حلاهـــــــا الـــــــدرع والـــــــزرد   ســـــــنان الـــــــرمح عاملنـــــــا

***

وهـــــل لخيولنـــــــا شـــــــبة — كـــــرائم مـــــا بهــــا شــــــبه
إليهـــــا الكـــــل منتبــــــــه — وهـــــل تخفـــــي أصـــــائلنا؟

***

لنـــــا فـــــي الجـــــيش فرســـــان — لهـــــم عـــــن اللّقـــــا شـــــان
وفلـــــي الهيجـــــاء عنـــــوان — تهـــــيم بـــــه صـــــواهلنا
فهـــــا الميـــــدان (والشـــــقرا) — ســـــقت أذن العـــــدا وقـــــرا
كأنـــــا نرســـــل الصـــــقرا — فمـــــن يبغـــــي يراســـــلنا

***

مـــــدافعنا القضـــــا فيهـــــا — وحكـــــم الحتـــــف فـــــي فيهـــــا
وأهونهـــــا وجافيهـــــا — تجـــــود بـــــه معاملنـــــا
لنـــــا فـــــي المـــــدن تحصـــــين — وتنظـــــيم وتحســـــين
وتأييـــــد وتمكـــــين — منيعـــــات معاقلنـــــا

وهذه الأبيات لمن خير ما قيل في وصف الجيش المصري، ولا شك أن رفاعة قد استلهم شعره من مفاخر الجيش في عهده، فهو يصور العصور الذي عاش فيها تصويراً صحيحاً، لا مبالغة فيه ولا إغراق، وإن قصيدته لتشبه أن تكون لوحة فنية يخيل لمن ينظر إليه أنه يلمح فيها كتائب الجيش المصري يسير إلى ميادين الحرب، تحف بها أعلام النصر والظفر، تخوض غمار القتال، بقلوب ملؤها الشجاعة والإقدام، وتجابه الأخطار قوية الإيمان، ثابتة الجنان، مجهزة بالسلاح والمدافع "تجود به معاملنا"، ولو لم يشهد رفاعة مفاخر الجيش المصري في ذلك العصر، لما جادت قريحته بها الشعر، وهكذا يتأثر الشاعر والأديب بالعصر الذي يعيش فيه، والبيئة التي تحيط به، ويصور الحياة على عهد فكأنما هو قطعة من عصره، أو مرآة تنطبع فيها مشاهد الحياة السياسية والاجتماعية، ومظاهر الحالة الفكرية والأخلاقية.

وإنك لتلمح أيضاً عظمة الجيش المصري في قول رفاعة في قصيدة أخرى يخاطب فيها الجنود:

يـــــــا أيهـــــا الجنـــــــود والقـــــــــــادة الأســــــــــود
إن أمكــــــــــم حســـــــــود يعــــــود هـــــامي المــــــدمع
فكـــــــم لكــــــم حـــــروب بنصـــــــــــركم تـــــــــؤوب
لــــــم تثـــــنكم خطـــــوب ولا اقتحـــــــام معمــــــــع

* * *

وكــــم شــــهدتهم مــــن وغــــي وكـــــم هــــزمتهم مـــــن بغـــــى
فمــــــن تعـــــــدي وطغـــــي علـــــى حمـــــاكم يصـــــرع

وتتجلى روحه الوطنية المتطلعة إلى الحرية في تعريبه نشيد الحرية (المارسلييز)، فإن النفس لا تميل إلى ما هو محبب إليها، فهذا النشيد قد استثار ولا شك إعجاب رفاعة رافع، حتى مالت نفسه إلى تعريبه، وإظهار ما احتواه من العواطف الوطنية الفدائية في حلة عربية قشيبة.

وإذا تأملت في شعر رفاعة رافع الذي نقلنا طرفاً منه وجدت فيه تقدماً نسبياً إذا قارنته بأسلوب شعراء المدرسة القديمة التي سبقته، كالشبراوي والعطار والخشاب وغيرهم، ويعد شعره دور الانتقال إلى دولة الشعر الحديثة التي حمل لواءها ما البارودي، وإسماعيل صبري، وشوقي، وحافظ.

حقاً إننا إذا وضعناه إلى جانب شعر شوقي مثلاً، لجاء في المرتبة الثالثة، أو الرابعة، ولكن يجب ألا ننسى أن رفاعة رافع نشأ في عصر كانت اللغة العربية وآدابها في دور تأخرها واضمحلالها، فله على نهضة الشعر والأدب فضل لا ينكر.